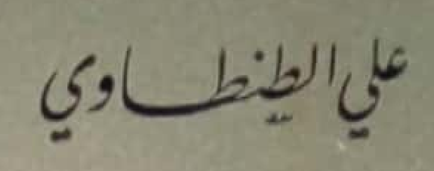




محمد بن عبد الوهاب

٢

أعلام التاريخ

٧

دار الفكر بدمشق

علي الطنطاوي

محمد بن عبد الوهاب

(٢)

دار الفكر بدمشق

الطبعة الأولى

١٣٨١ - ١٩٦١



مطابع دار الفكر بدمشق
☎ ١١٠٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ،

اللهم اجعل عملي هذا خالصاً لك ،

اللهم إني أسألك أن تنفع به ، وأن تثيبني عليه ،

وصل اللهم على سيدنا محمد معلّم الخير وعلى آله

وصحبه ومن تبعهم بإحسان .

لو فكرت في حال الصالحين من المسلمين اليوم لرأيتهم يصلون كما كان يصلي السلف، ويصومون كما كانوا يصومون، ويتلون القرآن، ويصدعون بالأذان ، ثم لا يكونون مثل السلف، ولا تكون لهم أخلاقهم ولا مزاياهم، ولا عزتهم ولا جهادهم ، ولا منزلتهم عند الله ، ولا عند الناس .

ولو فتشت عن السبب في هذا الاتفاق وهذا الاختلاف ، لرأيت القرآن هو القرآن ، ما تبدل ولا تغيّر، بل ان عندنا من التفاسير الكثيرة ما لم يكن عندهم ، والسنة قد احصيت وصنفت ، ومُيّز صحيحها من ضعيفها ، ومرفوعها من موضوعها ، وقد بُحث عن أحوال نقلتها ورواتها ودرجات حفاظها ومخرّجيها، وأُلّفت الكتب الكبار في شرحها وبيانها، وعندنا في الفقه آلاف وآلاف من الكتب ، في أصوله وفروعه ، على اختلاف مذاهبه وتعدد طرائقه ، ولعل فينا اليوم من هو أحفظ لفروع المسائل وأدلتها وأجمع لها من الأئمة الأولين ، ومساجدنا أرحب وأجمل ومآذننا أعلى وأطول ، ومؤذنونا أندى أصواتاً وأكثر تنغيماً .

فلم قصّرنا ولنا هذا كله ؟ ولم سبقونا وما كان عندهم منه إلا القليل ؟

السبب هو أن الدين كان لهم معنى في لفظ ، فصار لنا لفظاً بلا معنى ، وكان روحاً في جسد ، فصار جسداً بلا روح .

خذوا كلمة التوحيــــد : « لا إله إلا الله » التي دعا الرسول ﷺ العرب إليها ،وأُمر أن يقاتلهم إن لم يقولوها ، فإذا قالوها كان بها عصمة دمائهم وأموالهم .

لقد رغبوا عن هذه العصمة ، وهم راغبون فيها، وارتضوا الحرب وهم كارهون لها ، واستسهلوا بذل أموالهم ودمائهم عن النطق بها ، إذ كان لهم على جاهليتهم من الادراك ما فهّمهم معناها، ووقفهم على نتائجها فعرفوا ان وراءها (التزامات) في العقيدة وفي القول وفي العمل ، وان من قالها وكان من أهلها ، لم يكن له ان يسأل ، فيما وراء الأسباب الظاهرة ، إلا الله ، ولا يعتمد إلا على الله ، وأن يؤمن بأنه لا ينفعه ولا يضرّه إلا الله ، وأن لله وحده الخلق وله الأمر وله الحكم ، وأنه لا يشفع عنده شافع إلا باذنه، وأنه ليس بينه وبين العبد واسطة يتخذها (زلفى) إليه...

وكان لهم من الخلق ما منعهم أن يكذبوا فيها فيقولوها بألسنتهم ،ثم لا يخالط الايمان بها حبات قلوبهم ، ولا تظهر آثارها في الدقيق والجليل من أعمالهم ، وفي الظاهر والخفي من شؤون حياتهم .

لقد عاندوا وكابروا ، وجالدوا وقاتلوا ، ثم منّ الله عليهم بالهداية فقالوها ، فلما قالوها اتخذوها دستوراً لهم ، وعنواناً لفصل جديد من كتاب حياتهم،لم يكن فيه من الفصل الأول إلا ماقرره الإسلام وارتضاه من الفضائل والخيرات التي صاروا بها سادة الأرض كلها .

ونحن نمرّ هذه الكلمة على ألسنتنا عشرين مرة في اليوم، ولكنا لا نكاد نتصور لها دلالة، ولا ندرك لها معنى، ولا يظهر لها في حياتنا أثر، إنما هي كلمات يتحرك بها اللسان، ولا يعيها الجنان.

كانوا (إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلتْ قلوبُهم وإذا تُليت عليهم آياتهُ زادتهم إيماناً)، ونحن نذكر الله بلا خوف ولا وجل، ولا رجاء ولا أمل.

وكان الذكر ذكرين: ذكر القلب أن الله سميع بصير [1] لا تخفى عليه خافية، وأنه لعباده بالمرصاد. وذكر اللسان، كسبحان الله والحمد لله والله أكبر، فجعلنا الذكر سخرية وعبثاً، رقصاً وقفزاً، وتحريفاً لاسم الله إلى (اه) و (اح)، أو درنا كما تدور المولوية دوران المجانين.

وقرر الله في القرآن أن الرسول بشر مثلنا وإن امتاز بالوحي والرسالة علينا، ليس له من الأمر شيء، وأنه لا يعلم الغيب، وأكد ﷺ، وهو المبيّن للقرآن، أنه لا يغني عن عمه العباس، وعن ابنته فاطمة، من الله شيئاً، وهما أقرب الناس إليه، فكيف بسائر الناس، ونهانا أن نطريه كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فخالفنا ذلك كله، ورحنا نتلو في صباحنا ومسائنا أمثال هذا البيت الفظيع، نخاطب به الرسول ﷺ:

عجل بإذهاب الذي اشتكي فإن توقفت فمن اسأل؟

---

(١) جملة ان الله سميع بصير، مفعول به لـ (ذكر)

فخبروني سألتكم بالله ، عمن يقول هذا الكلام العربي الواضح المعنى أين هو من التوحيد الذي جاء به محمد بن عبد الله ﷺ ؟

ولا يزال المنشدون عندنا ينشدون إلى الآن في الموالد ، وفي الاذاعات، أمثال هذه الأبيات :

مالي سواك أبا الزهراء ملتجأ يرجى لكشف هموم أنحلت جسدي
فانظر إليّ وخلصني بحقك من هول القيامة يا غوثي ويا سندي
وامنن عليّ بأن أحيا بحبك عن كل الوجود لأحيا مدة الأبدِ(١)

وكان من آخر ما أوصى به ﷺ ، وهو في آخر ساعات العمر ، إن الله لعن بني إسرائيل ، لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، فخالفناه حتى أنك لا ترى مسجداً ليس فيه قبر . ومالم يكن فيه قبر ، صورنا فيه صورة قبر خال ، كأننا نتعمد المخالفة تعمداً .

وقال لنا الرسول ﷺ : من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ ، أي أن الدين قد تم فلا يزاد عليه ولا ينقص منه ، وطريق القربات إلى الله قد حدد ، فلا يوسّع ولا يضيق ، فعمدنا إلى أشياء ما أمر بها ، ولا كان عليها هو ولا صحابته فأقبلنا عليها ، وتمسكنا بها .

بدع ملأت المساجد، في الأذان وفي صلاة الجمعة وفي غيرها ، واعتقدنا أنها حسنة وأنها مطلوبة في الدين .

---

(١) الأناشيد الجليلة للمدرسة التجارية العلمية ، طبع دمشق سنة ١٣٥٠
ومثلها (لا أرجو غيرك ان جارا دهري وعدمت الأنصارا)
ومئات من أمثالها .

ونسينا أنها إن كانت حسنة ،وكانت كمالاً ، كان عدمها (بالضرورة) سوءاً ونقصاً .

ومن نسب السوء والنقص إلى الرسول ﷺ كفر .

وقد هدم عمر المسجد الذي تعمدوا الصلاة فيه تبركاً لأن الرسول صلى فيه ،وقطع شجرة الرضوان لئلا يفتتن بها الناس .

وقال للحجر الأسود: إنك لحجر لا تضر ولا تنفع،ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبّلك ما قبلتك .

وعزل خالداً سيد القواد ، خشية أن يعتقد الناس أن النصر به أو منه ، وما النصر إلا من عند الله .

كل ذلك لفرط إحساس المسلمين الأولين بالتوحيد ، وغيرتهم عليه، وشدة وقره في صدورهم .

فانتهت الحال قبيل ولادة محمد بن عبد الوهاب أن تشعث هذا السد ، وتضعضع هذا البناء ،وخالط التوحيد كثيرمن الشرك، فما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون .

واعتقد الناس النفع والضرر بالرسول ﷺ والصالحين ، وبالقبور والاشجار والقباب والمزارات، وصاروا يدعون هؤلاء جميعاً ،ويطلبون

الحاجات منهم ، ويرجعون في الشدائد إليهم ، وينذرون لهم ويذبحون لهم الذبائح .

واشتد تعظيم الأموات ، كأن المسلمين وقد توالت عليهم قرون ، فقدوا فيها مظاهر الحياة الاسلامية الأولى : العزة والفتوح وسيادة العلم وسيادة الحكم ، قد رأوا أنفسهم كالأموات وهم أحياء، فعوضوا أنفسهم عما فقدوا بتخيل أن الأموات الذين هم في المقبرة هم الأحياء في هذه الدنيا ، وراحوا يروون مناقبهم ، ويتحدثون بعظمتهم ، ويقرنونها في أذهانهم بما صاروا إليه ، فانتهى بهم ذلك إلى أن اعتقدوا أن الأموات ينفعون ويضرون ، وساعد على انتشار ذلك ما يعتقده الشيعة في قبور الأئمة ، وتلك (العتبات المقدسة) بزعمهم ، وما قدس الإسلام عتبات ، ولا قبوراً .

وكان حظ نجد من هذه الجاهلية الجديدة اكبر الحظوظ ، فقد اجتمع على أهله الجهل والبداوة والفقر والانقسام .

ولقد كان في كل ناحية من نواحي نجدمن الأمراء ، بمقدار ما كان فيها من القرى ، ففي كل قرية أمير ، وفي كل ناحية جمعية أمم .

ففي جلاجل من ناحية السدير إمارة ، وفي بريدة من ناحية القصيم إمارة ، وفي الدلم من ناحية الخرج إمارة ، وفي ثرمدا من ناحية الوشم إمارة، وأمثال ذلك .

ولعل من هذه الإمارات، مالو اجتمع عشر منه لم يبلغ بمجموع العشر معاً مثل قرية (دوما) ، لا في العمران ولا في عدد السكان .

وكان في كل إمارة قبر عليه بناء ، أو شجرة لها أسطورة ، يقوم عليها سادن من شياطين الأنس ، يزيّن للناس الكفر ، ويدعوهم إلى الاعتقاد بالقبر ، والذبح له ، والتبرك به ، والدعاء عنده . .

أذكر على سبيل المثال على ذلك ، شجرة تسمى شجرة الذئب يؤمها العوانس يرتجين بها الزوج أو الولد .

وقبة على قبر منسوب إلى زيد بن الخطاب (اخى عمر) عليها الاستار الغالية ، والسرج والمصابيح ، تنذر لها النذور وتذبح عندها الذبائح .

وكانوا (كما يروي ابن بشر) إذا نزلوا في البلدان، وقت الثمار ، عرض لهم المتطببون الجاهلون فيأتيهم أهل المريض يسألونهم العلاج ، فيسترون جهلهم بالخرافة وبالشرك ، فيقولون لهم :

اذبحوا له خروفاً أسود ، أو تيساً أصمع ، في محل كذا ، ولا تسموا الله على ذبحه ، واندروه لصاحب القبر ، فيشفى المريض وأمثال ذلك .

وكان العلماء قلّة ، والحكام عتاة ظلمة ،والناس فوضى يغزو بعضهم بعضا ، ويعدو قويهم على ضعيفهم ...

* * *

... في تلك البيئة نشأ محمد بن عبد الوهاب ، فرأى شمس الإسلام إلى أفول، ورأى ظلمة الكفر إلى امتداد وشمول، وأراد الله له الخير فقدر له أن يكون أحد الذين أخبر الرسول ، أنهم يبعثون ليجددوا لهذه الأمة دينها، بل لقد كان أحق بهذا الوصف من كل من وصف به في تاريخنا . فقد حقق الله على يديه عودة نجد إلى التوحيد الصحيح، والدين الحق ، والالفة بعد الاختلاف ، والوحدة بعد الانقسام ولا أقول إن الرجل كامل فالكمال لله ، ولا أقول إنه معصوم فالعصمة للأنبياء ، ولا أقول إنه عار عن العيوب والأخطاء ، ولكن أقول أن هذه اليقظة التي عمت نجداً ، ثم امتدت حتى جاوزته إلى أطراف الجزيرة ثم إلى ما حولها ، ثم امتدت حتى وصلت إلى آخر بلاد الإسلام ليست إلا حسنة من حسناته عند الله ، إن شاء الله .

أسرة الشيخ

محمد بن عبد الوهاب من أسرة علم ما كان في نجد في القرون الخمسة الأخيرة اسرة أنجبت من العلماء الأعلام مثلها أنجبت ، كان جده سليمان ابن علي عالم نجد في زمانه ، وكان هو مرجع المستفتين ، وملاذ العلماء والمتعلمين، وكان فقيها ، عارفاً بالمذاهب ، له فتاوى مشهورة، وله كتب.

وكان له ولدان عبد الوهاب وابراهيم اشتغلا بالعلم ، ونبغا فيه ،

أما ابراهيم فاقتصر على القراءة والتعليم ، وكان كأبيه يفتي ويدرس ، وخلفه في ذلك ابنه عبد الرحمن .

وأما عبد الوهاب فولي القضاء في العيينة ،في إمارة ابن معمر (عبدالله ابن محمد بن حمد بن عبدالله بن معمر)وقد ازدهرت في أيامه العينية،وعمرت وقصدها التجار ، فلما مات ابن معمر في الوباء المشهور سنة ١١٣٩ هـ وتولى بعده حفيدة محمد بن حمد المعروف بخرفاش ، كانت بينه وبين القاضي (الشيخ عبد الوهاب) منازعات ، فعزله من القضاء وجعل مكانه احمد بن عبد الله بن عبد الوهاب فانتقل إلى حريملة قاضياً لها .

وكان لعبد الوهاب ولدان محمد وسليمان .

أما سليمان فكان عالماً فقيها ، وقد خلف اباه في قضاء حريملة [1] ، وكان له ولدان عالمان عبد الله وعبد العزيز ، وكانا في الورع والعبادة آية من الآيات .

أما محمد ، فهو صاحب الدعوة التي عرفت بالوهابية .

نشأته

ولد محمد في قرية العيينة ، لما كان أبوه قاضياً فيها ، سنة ١١١٥ هـ ،

---

(١) وقد ناوأ أخاه ، وعارض في دعوته وأيد خصومه ، ثم وفد عليه مبايعاً

وكان أبوه الشيخ عبد الوهاب يشتغل مع القضاء بالاقراء والتدريس ، وكان له تلاميذ يقرؤون عليه من العلم ما كان يقرأ في تلك الأيام ، فيحفظون القرآن،ويحفظون بعده طائفةمن صحاح الأحاديث،ويدرسون النحو والصرف والفقه الحنبلي ، وكانت دراسة الفقه على الأسلوب الذي كان معروفاً في دمشق ، من خمسين سنة ، ولا يزال بعض العلماء يرى أنه هو الأسلوب الصحيح ، وهو قراءة عبارات الكتاب وشرحها ، يشتغلون بألفاظ العبارة أكثر من اشتغالهم بموضوع الكتاب .

فحضر محمد هذه الدروس ، وظهر نبوغه مبكراً ، وتبين لأبيه ذكاؤه واستعداده ، فخصه بعنايته واهتمامه ، فما قارب الولد البلوغ حتى كان قد حفظ القرآن ، ومجموعة كبيرة من الأحاديث الصحاح ، وأخذ بحظ وافر من العربية وفقه أحمد بن حنبل .

ونظر فيما يشغل به وقته بعد فراغه من الدرس وينفق فيه الفضل من نشاطه ، فلم يجد إلا نسخ الكتب فأولع به حتى كان يكتب الكرّاس (أي الملزمة) في جلسة واحدة .

ولم يبق عند أبيه ما يزداد به علماً ، ولم يكن في العيينة من يقرىء ويعلم ، فاستأذن أباه بالحج وبالرحلة لطلب العلم .

وذهب إلى الحجاز ، فحج ولبث في الحرمين شهرين ، جلس فيهما في حلقات العلماء ، فرأى شيئاً لم يجد مثله عند أبيه وعلماء بلده .

ورجع إلى العيينة فلبث فيها إلى الموسم الثاني ، فحج ، ثم ذهب إلى المدينة للطلب والتحصيل .

طلبه العلم

ولقي في المدينة رجلين وكان لهما في حياته وفي توجيهه أثر كبير .
الأول ، شيخ نجدي ، من أسرة لهـا الوجاهة والرياسة في قرية المَجْمَعة [1] ، عالم عاقل ، من العاكفين على كتب ابن تيمية ، والمتبعين له ، الآخذين بآرائه ، هو الشيخ عبد الله بن ابراهيم بن سيف .

وكان متألماً مما وصلت اليه الحال في نجد ، من فشو الجهل ، وظهور المنكرات ، والبعد عن حقيقـــة التوحيد ، منكراً لذلك حريصاً على إزالته وتغييره ، ولكنه كان يعلم أن الطفرة مستحيلة ، وأن السبيل الموصلة الى هذا الاصلاح ، هي سبيل الدعوة والارشاد ، ونشر العلم .

---

(١) من قرى اقليم السدير في نجد

وقد حدّث الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، قال :

كنت عنده يوماً ، فقال لي: أتريد أن أريك سلاحاً أعددته للمجمعة؟

قلت له : نعم .

فأدخلني غرفة مملوءة بالكتب ، وقال :

ـ هذا هو السلاح الذي أعددته لها .

وابن سيف هذا هو الذي دلّ محمد بن عبد الوهاب على كتب ابن تيمية وأعانه على قراءتها ، وأجازه بها وبالكتب الستة وسائر كتب الحديث إجازة عامة (١) .

الرجل الثاني

أما الرجل الثاني ، فهو شيخ هندي الأصل ، سلفي المشرب ،

---

(١) والاجازة قسمان :

إجازة خاصة بكتاب معين ، يشهد الشيخ فيها لتلميذه بأنه قرأ هذا الكتاب ، وفهمه ، ووقف على مافيه . وإجازة عامة بمجموعة من الكتب ، أو بكتب علم من العلوم ، أو بالعلوم العربية أو الإسلامية كلها ، وهي شهادة للتلميذ بأنه صار أهلاً لمراجعة كتب هذا العلم ، وتدريسها ، والفتوى بما فيها .

والاجازة الخاصة في عرف العلماء الأولين أعلى درجة وأولى بالاعتبار ، لأنها لاتكون إلا بعد اختبار حقيقي ، وتلك تعطى على الظن والتقدير ، ويتساهل في العادة في إعطائها .

ينكر البدع والمحدثات إنكاراً صريحاً ، هو الشيخ محمد حياة السندي(٢)

ويظهر أن الشيخ كان يغلو في الانكار على فاعليها حتى يصل إلى تكفيرهم وتطبيق الآيات التي نزلت في المشركين عليهم .

وقد نبّه محمداً إلى مايصنع بعض زوار قبر الرسول ﷺ ، من المنكرات التي لم تكن ، وقال له :

ـ أترى الى هؤلاء (إنّ هؤلاءِ متبّرٌ ماهم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون) .

ويظهر أن ما أنكروه على ابن عبد الوهاب من تكفير الناس كان أثراً من آثار هذا الشيخ الهندي .

شيوخ آخرون

واتصل في المدينة بمشايخ آخرين ، حضر عليهم ، وسمع منهم ، وأخذ اجازتهم ، ولم يكن لأحد منهم من الأثر في نفسه ما كان للشيخ السندي ، ولابن سيف ، وكان تأثير السندي أوضح وأعمق ، لأنه أميل إلى الشدة ، وابن عبد الوهاب صريح عنيف ، كابن تيمية ، وابن سيف هادىء ، يريد الدعوة الهادئة .

---

(٢) كان له اشتغال بالحديث ، ألف فيه كتاباً سماه : تحفة الأنام في العمل بحديث النبي عليه الصلاة والسلام وله شرح للأربعين النووية توفي سنة ١١٦٥

ومن هؤلاء المشايخ ، شيخ تركي الأصل ، قدم المدينة من الشام، فأقلم فيها مجاوراً ، هو الشيخ علي الداغستاني ، ومنهم الشيخ اسماعيل العجلوني ، واثنان من علماء الاحساء هما الشيخ عبد اللطيف العفالقي والشيخ محمد العفالقي (١)

ولم يحدد أحد ممن ترجم لابن عبد الوهاب مدة إقامته في المدينة .

الأتجاه الى السلفية

وفي هذه الفترة تم اتجاه محمد بن عبد الوهاب الوجهة التي عرف بها وثبت عليها طول عمره ، وكان العامل الأول في توجيهه هذان الشيخان.

على أن هنالك عوامل خفية لولاها لم يكن لهذين الشيخين ذلك الأثر في نفسه ، هي استقلال فكره ، وحدة طبعه ، وجرأة نفسه ، إذ ربي على الحرية والاكرام ، وعود من صغره التفكير والبحث ،ثم ما كان حوله من مظاهر الجاهلية التي تنسب كذباً إلى الإسلام ، ويدرك العاقل بأيسر نظرة أنه لا يمكن أن يقول بها الإسلام ، ولا يقرّها العقل من تعظيم الأشجار والاحجار ، ونسبة الضرر والنفع اليها ، فاجتمع على توجيهه عامل الاستعداد النفسي ، وعامل البيئة ، وعامل الثقافة .

---

(١) من نسل الشيخ ابن عفالق قاضي العيينة المتوفى سنة ١٠١٩

وقد عاد إلى نجد ، فاستأذن أباه أن يكمل رحلته في طلب العلم ، فيتوجه الى الشام ، فأذن له ، وكان الطريق على البصرة ، فلما وصل اليها وجد فيها عالماً سلفياً له مدرسة يقرىء فيها اسمه الشيخ محمد المجموعي (نسبة الى المجموعة ، حي من أحياء البصرة) فحضر عليه ، وسمع دروسه ، ورآه قائماً بانكار المنكر ، صريحاً في ذلك لايداري فيه ولا يساير ، وكان في نفس ابن عبد الوهاب مثل البركان يريد أن يتفجر فلقي منفذاً ، فانطلق يعلن بالإنكار يشجعه على ذلك شيخه المجموعي ، وزاد حتى راح يكفر المسلمين جميعاً .

وقد حدّث الشيخ محمد بن عبد الوهاب نفسهُ بما كان بينه وبين أهل البصرة فقال :

كان ناس من مشركي البصرة يأتون إليّ بشبهات يلقونها عليّ ، فأقول : لاتصلح العبادة إلا لله ، فيبهت كل منهم ولا ينطق .

وهذا صريح كلامه بتكفير المسلمين ، واعتبارهم مشركين ، ولعل هذا هو سبب ثورتهم عليه ، حتى أخرجوه من البصرة ، وأحسب أنه لو سلك سبيل الحكمة والموعظة الحسنة ، وكان أوسع صدراً وألين جانباً ، لما لقي منهم الذي لقي .

خروجه من البصرة

ولم يعد أهل البصرة يطيقون هذا العنف في الدعوة ، فاجتمعوا عليه فآذوه وآذوا شيخه المجموعي ، وأخرجوه من البلد ساعة الظهيرة ، فتوجه إلى الزبير [1] ، بغير زاد ولا راحلة ، منفرداً يمشي على رجليه ، فبرّح به العطش وأشرف على الهلاك ، فلقيه رجل من الزبير يقال له ابو حميدان ، كان معه حمار ، فأشفق عليه فسقاه وحمله على حماره حتى اوصله إلى الزبير .

ووجد الشيخ ان نفقته التي كانت معه قد ضاعت ، فضاع أمله في الوصول الى الشام وعاد الى نجد ، ومرّ بالاحساء فنزل على الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الاحسائي ، وكان فقيهاً شافعياً متمكناً ، لم يكن من طراز ابن سيف والسندي والمجموعي ممن عرف ابن عبد الوهاب وألف ، فتركه وعاد الى نجد ، فاستقر في حريملة ، وكان أبوه قد فارق العينية وانتقل اليها ، قاضياً فيها ، سنة ١١٣٩

الجهر بالدعوة

وجلس في حلقة أبيه يحضر دروسه ، وينكر ما يرى من البدع

---

(١) الزبير اليوم قرية كبيرة اهلها سلفيو المشرب . وهي البصرة القديمة وفيها قبر الزبير وإليه نسبتها

والمخالفات ، واشتد في ذلك حتى أثار عليه الناس ، ولم يرتض أبوه هذا المسلك منه ، ولم يقره عليه ، وكان يؤثر المسالمة ويكره العنف ، فنهاه حتى وقع بينهما كلام (كما يقول ابن بشر [١]) ولكنه استمر على دعوته وإنكاره ، واستجاب له فريق من الناس وتابعوه ، وصار طلبة العلم طائفتين ، قليل منهم معه ، والكثير عليه ، وكان أبوه (كما يظهر) من رأي الطائفة الثانية .

وجاوز خبره حدود هذه القرية ، ووصل إلى العيينة والدرعية والرياض ، ومن كان حولها من القبائل .

بعد وفاة أبيه

وكان يرعى لأبيه حرمته ، ويوقره ، وإن رأى أن حق أبيه وطاعته لاتسوّغ له التوقف عن دعوته ، فلما توفي أبوه سنة ١١٥٣ انطلق الشيخ من عقاله ، ونشط في دعوته ، وبذل فيها ماأعطي من قوة واندفاع .

الى العيينة

وكان في حريملة قبيلة كبيرة ، انقسمت مع الزمن إلى فرعين كانا

---

(١) في كتابه عنوان المجد . وهو أوسع ما كتب عن الشيخ وعن الحركة الوهابية ، يليه تاريخ نجد للألوسي وتاريخ ابن غنام وكتاب ابن سحمان .

يتنازعان الرياسة، وكانت الرياسة دولة بينهما، فإذا حكم أحدهما لم يكن له على الآخر سلطان ، فكان الفرع العاطل عن الحكم بمثابة الحزب المعارض اليوم ، ولكنها معارضة قائمة على الشغب والعدوان والإفساد في الأرض .

وكان لهذا الفرع (لما تصدر الشيخ في حلقة أبيه بعد وفاته) ، عبيد أشداء عتاة مفسدون يقال لهم (الحميّان) ، كثر فسقهم واعتداؤهم على الناس ، فنهاهم الشيخ ، عن منكرهم ، ودعا الناس إلى كف شرهم ، فبيتوا مؤامرة لقتله ، وتسوّروا عليه الجدار ليلاً ، وكادوا يقتلونه لولا أن رآهم من صاح بهم ونبه الناس إليهم فهربوا .

ورأى الشيخ أن لا مقام له بعد ذلك في حريملة فانتقل إلى العيينة ، وهي موطنه ، وكان فيها مولده .

هو والامير عثمان

وكان أميرها محمد الذي عزل الشيخ عبد الوهاب قد توفي ، وخلفه عثمان بن حمد (ابن معمر [١]) ، فتلقى الشيخ بالقبول ، وأكرمه ، وزوجه عمته الجوهرة بنت عبد الله .

وكان الشيخ لفرط ألمه مما يرى من حال المسلمين، ولما ركب في طبعه من الحدة والمضاء ، يريد إصلاحاً عاجلاً ، يسوق الناس إليه ، ويكره من

---

(١) نسبته الى جده الاعلي معمر

يأباه عليه ، ولم يكن يرى لذلك إلا وسيلة واحدة [1] ، هي أن يستعين بسلطان أمير من أمراء نجد ، فلما أحسن عثمان استقباله في العيينة ، وأكرم وفادته ، وزوجه عمته ، أمّل فيه ، فعرض عليه مايدعو إليه من الرجوع إلى التوحيد الذي كان عليه السلف ، ونبذ البدع والمحدثات ، وقال له :

- إني أرجو إن انت قمت بنصر (لا إله إلا الله) أن يظهرك الله تعالى ، وتملك نجداً وأعرابها.

فاستجاب له عثمان ، ووعده المساعدة والنصر ، فأعلن الدعوة ، وجهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتبعه ناس من أهل البلد.

ازالة المنكرات .

وكان في العيينة كما كان في نجد كلها ، وفي سائر بلاد الإسلام ، أشجار تقدس ، وقبور تعظم ، وأحجار يعتقد أنها تضر وتنفع ، فكان يستأجر رجالاً يدفع إليهم من ماله ، ليهدموا القباب ، ويقطعوا الأشجار ، وكان فيها شجرة الذئب التي تقدم الكلام عليها ، وقد كان النساء يقصدنها إذا أردن زواجاً ، أو أضللن ضالـّة ، أو كانت لهن حاجة ، فيربطن بها الخرق ، ويسألنها ، فخرج إليها بنفسه ، ليقطعها في غفلة من أهلها ، فمر به

---

(١) اقرأ مقالة (طرق الدعوة إلى الله) في كتابي (فصول إسلامية)

راعي غنم ، فاعترضه وأراد أن يمنعه ، ولم يكن معه مال يسكته به ، فخلع رداءه ودفعه إليه .

وأصبح الناس فلم يجدوا الشجرة ، فهاجوا وماجوا ، وترقبوا بالشيخ العطب فوجدوه لم يصبه شيء .

وكان أكبر تلك الأوثان القبة المنسوبة لزيد بن الخطاب وكانت في قرية الجبيلة ، عليها الستائر الغالية ، والقناديل ، وأنواع الزينة ، يقلدون بذلك النصارى في كنائسهم ومزاراتهم ، ويؤثرون به في العامة .

ولم ير أن يقدم عليها وحده ، فشاور عثمان ، وقال له:

– دعنا نهدم هذه القبة التي وضعت على الباطل ، وضل بها الناس عن الهدى .

قال : دونكها فاهدمها .

قال الشيخ : إني أخاف من أهل الجبيلة أن يوقعوا بنا ، ولا أستطيع هدمها إلا وأنت معي .

فسار معه عثمان بنحو ستمئة رجل ، فلما اقتربوا منها خرج أهل الجبيلة ليمنعوها ، فتأهب عثمان لحربهم ، وصفّ جنده ، وأعدّ سلاحه ، فلما رأوا ذلك يئسوا من منعهم بأيديهم ، فأقبلوا يمنعونهم بألسنتهم ، يخوفونهم عاقبة إقدامهم عليها ، يزلزلون بذلك أعصابهم ، ويضعفون نفوسهم

كما يفعل بعض أدعياء العلم حين يرون أحداً ينكر على بعض مبتدعة المتصوفة ، ولايجدون حجة شرعية يكفونه بها ، فيحذرونه الكلام في هؤلاء لأنهم في زعمهم أولياء ، وكما فعل المشركون لما أمر الرسول ﷺ بهدم الأصنام وكسرها.

ولما رأى الشيخ ذلك أخذ الفأس ، وضرب به جوانبها ، وتابعه أصحابه ، وأزيلت القبة ، ومانال الشيخ ضرر ، إنما نال القوة والرفعة والظفر ، والثواب من الله والشكر من أهل الإيمان .

اقامة الحدود

وكان الشيخ هو الأمير حقاً ، ماللأمير معه إلا أن يأتمر بأمره ، وينفذ حكمه ، وبلغ من تأثيره في الناس ، أن جاءته فتاة نجدية ، تعترف بأنها قد زنت وهى متزوجة ، وتطلب أن يقام عليها الحد .

وكانت تعلم أن الحد هو أشد عقوبة عرفها البشر ، الرجم ، وأقدمت مع ذلك على الاعتراف وطلب العقوبة ، لما تمكن في قلبها من العقيدة ، ومارسخ فيه من الإيمان ، وهذا أسمي وأصعب مايتصور من ألوان (التضحية) بالنفس في سبيل الواجب .

والحدود في الشرع تدرأ بالشبهات ، ومن الواجب على الحاكم أن يتبع سنة الرسول في نفي الشبهات .

ففتح لها ابن عبد الوهاب باباً للنجاة فسألها : هل غصبت غصباً ؟

فأعلنت أنها كانت راضية مختارة غير مغصوبة ولا مكرهة .

فتحقق من عقلها هل فيه شيء ، فتبين له صحة عقلها .

وأصرت إصراراً غريباً ، وكان موقف لا يكاد يجد له الباحث عشرة أشباه في تاريخ البشر ، موقف هو أعجوبة الأعاجيب في تاريخ الإيمان : امرأة شابة ذات جمال ، تعرض نفسها للتضحية وللألم ولاحتمال أقسى العقوبات ، خوفاً من الله وأملاً بالنجاة في الآخرة .

وأقام عليها الحد ، ومشى الخبر في البوادي ، فانقطعت به طرق الزنا كما انقطعت السرقة فيما بعد من جزيرة العرب بإقامة حد القطع[1].

الصلاة

ورأى الشيخ المسلمين منصرفين عن صلاة الجماعة ، وهي أولى شعائر الإسلام ، فأشار على الأمير عثمان بأن يلزم الناس بها ، ويمنعهم من التخلف عنها ، وجعل لذلك موظفين يدورون في الأسواق ، يجمعون الناس الى الصلاة ، فامتلأت المساجد بالمصلين ، ثم عمرت بمجالس العلم والذكر ، وأثمرت الحب بين الناس والتعاون بين المصلين ، وذلك أولى ثمرات الصلاة في الدنيا .

---

(١) سمعنا من الحجاج هذه السنة انها عادت مع الاسف لتهاون القوم بأمر الشرع .

منع المظالم

وكان الحكام يمدون أيديهم إلى أموال الناس ، يأخذون منهم الأموال الكثيرة ضرائب ما أمر بها الله ، ولا أجازها الشرع ، فما زال بالأمير حتى تركها واكتفى بالزكاة المشروعة ، يجمعها من حلها ، وينفقها في وجهها ، فبارك الله له بها ، وأغناه بها عن تلك المظالم[1].

نكسة

وكان الأمير عثمان تابعاً لسليمان بن محمد عزيز الحميدي ، رئيس قبائل بني خالد أيام تسلطهم على الاحساء والقطيف والكويت ، وكان سليمان يعطيه كل سنة ألفاً ومئتي دينار ذهبي .

فلما سار الشيخ تلك السيرة مشى به الناس إلى سليمان ، وأوهموه أن الشيخ مبتدع محدث في الدين طامع في الملك .

فكتب إلى عثمان يأمره بكفه ومنعه مما هو فيه من إفساد الدين .

فعرض عثمان الكتاب على الشيخ فلم يبال به .

---

(١) على أن للحاكم المسلم ، أن يلزم الأغنياء بأكثر من الزكاة عند الضرورة ، وذلك بعد الرجوع الى الخبراء لتحديد مقدار الضرورة ، والى العلماء لبيان الوجه الشرعي في ذلك .

فعاد سليمان إلى تهديده ووعيده ، وأمره بقتل الشيخ وإلا قطع عنه ما كان يعطيه من المال ، وما كان يرسله مع المال من الكسوة والطعام ، فخاف عثمان وأظهر الضعف .

وحاول الشيخ تثبيته وقال له :

ـ إن هذا الذي أدعو إليه كلمة لا إله إلا الله ، وأركان الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن أنت تمسكت به ونصرته فإن الله سبحانه يظهرك على عدوك . فلا يزعجك سليمان ، ولا يفزعك تهديده ، فإني أرجو أن ترى من الظهور والتمكين والغلبة ما ستملك به بلاده ، وماوراءها ومادونها ، إن شاء الله .

فلم يجد عند عثمان ما كان يرجوه من الثبات ، ووجده قد غلب عليه الخوف ، ولكنه مع ذلك لم ينس خلائق العربي ، ولم يغدر بجاره ، فقال له :

ـ إن سليمان أمرنا بقتلك ، ولا نقدر على غضبه ولا مخالفة أمره ، وليس من المروءة ولا كرم الأخلاق أن نقتلك وأنت جارنا ، فشأنك ونفسك وارحل عن بلادنا .

الى الدرعية

وأمر عثمان طائفة من جنده فأخرجوا الشيخ جبراً ، وسأله رئيس

الجند ، وهو الفريد الظفيزي ، أين يريد من البلاد ليحمله إليها ، فاختار الدرعية لأن له فيها مريدين وأتباعاً .

فسيره إليهـــا يمشي على رجليه ، والجنـد وراءه على خيولهم ، يسوقونه أمامهم .

وكان يوماً حاراً ، تلظت فيه الرمال ، وتسعر الجو ، وتركوه من نصف الطريق وعادوا . فسار وحده على قدميه حتى بلغ الدرعية ، عند صلاة العصر ، فتوجه فيها إلى دار كبير أتباعه فيهـــا وهو عبد الله ابن سويلم العريني .

هو وابن سعود

وأقبل الناس على دار ابن سويلم ، لما سمعوا بقدوم الشيـخ ، حـتى ضاقت بهم الدار ، وخاف ابن سويلم على نفسه من محمد بن سعود أمـــير الدرعية ، فثبته الشيخ وقال له :

ــ سيجعل الله لنا ولك فرجاًومخرجاً إن شاء الله .

وجعل يدعو من حضره إلى التوحيد الحق ، ونبذ البدع والمحدثات والرجوع إلى الإسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله ﷺ ، بلا زيادة ولا نقصان ، ولا تغيير ولا تبديل .

واستجابوا إلى مادعاهم إليه ، وأرادوا أن يخبروا بذلك الأمير ابن سعود ، ويدعوه إلى نصرة الشيخ ، ولكنهم هابوا سطوته، وخافوا بطشه.

وكان للأمير زوجة ديّنة عاقلة ، اسمهـــاموضى بنت أبي وهطان ، فذهبوا إليها فأخبروها بمكان الشيـخ ، وبحقيقة مايدعو إليه ، فألقى الله في قلبها محبته والرغبة في نصرته.

ولما دخل عليها زوجها (ابن سعود) أخبرته خبره ، وقالت له :

ـ إن هذا الرجل غنيمة ساقها الله إليك ، فأكرمه وعظمـــه ، واغتنم نصرته ، فقبل منها ، وأراد أن يدعوه إليه ، فقالت له :

ـ بل سر إليه أنت ، والقه في مكانه ، وأظهر تعظيمه والاحتفـال به ليعظمه الناس ويكرموه .

لقاء ومعاهدة

ومشى ابن سعود إلى الشيـخ ، فلقيه في دار ابن سويـلم ، فرحب به وقال لـه :

أبشر ببلاد خير من بلادك ، وأبشر بالعز والمنعة .

فقـال له الشيـخ :

ـ وأنا أبشرك بالعز والتمكين ، وهذه كلمة (لا إله إلا الله) من

تمسك بها وعمل بها ونصرها ، ملك بها البلاد والعباد ،وهي كلمة التوحيد وأول مادعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم .

ثم أخبره بما كان عليه رسول الله ﷺ ومادعا إليه ، وما كان عليه أصحابه من بعده ، وماأمروا به ومانهوا عنه ، وأن كل بدعة في الدين ضلالة ، وأخبره بما أعزهم الله ، من الجهاد في سبيل الله وأغنام به ، وجعلهم إخواناً ، وبما عليه أهل نجد اليوم ، من المخالفة والشرك والابتداع والاختلاف والجهل والظلم .

فقال له ابن سعود :

– ياشيخ ، هذا الذي تقوله هو دين الله ورسوله لاشك فيه ، وأبشر بالنصرة لك ، ولما أمرت به من الجهاد لمن خالف التوحيد ، ولكن أريد أن أشترط عليك اثنتين :

الأولى ، أننا إذا قمنا بنصرتك ، وفتح الله لنا ولك البلدان ، أخاف أن ترتحل عنا وتدعنا وتستبدل بنا غيرنا .

والثانية : إن لي على أهل الدرعية قانوناً (١) آخذه منهم في وقت الثمار وأخاف أن تقول ، لاتأخذ منهم شيئاً .

فقال الشيخ :

– أما الأولى ، فابسط يدك أعاهدك ، وأما الثانية فلعل الله يفتح

---

(١) ويسمونه (أخاوة) وهو شيء كالضريبة .

لك الفتوحات على دين الله ورسوله ، وإقامة شرائع الإسلام فيعوضك الله من الغنائم ماهو خير من ذلك القانون .

وتعاهدا على ذلك.

واستقر الشيخ في الدرعية ، وجعل أصحابه يتوافدون عليه ويجتمعون عنده .

عثمان يندم

ولما رأى ذلك عثمان أمير العيينة ندم على خروج الشيخ من بلده وركب إليه في عدة من رؤساء البلد ، فسأله الرجوع إليه ، ووعده بنصره ومنعته فقال الشيخ :

— ليس ذلك إلي ، إنه لمحمد بن سعود ، فإن أراد أن أذهب معك ذهبت وإن أراد أن أقيم عنده أقمت ، ولا أستبدل برجل تلقاني بالقبول غيره ، إلا أن يأذن لي .

فأبى ذلك محمد ، وأصر على استبقاء الشيخ ، فرجع عثمان .

الاصلاح في الدرعية

وكان أهل الدرعية ، كأكثر النجديين جاهلين مخالفين .

فبدأ الشيخ فلقنهم معنى (لا إله إلا الله) علمهم أصول الإسلام ، وعرفهم سيرة الرسول ﷺ وسير أصحابه وما كانوا عليه ، وأفهمهم أن الدين قد كمل ، فلا يزاد عليه ولا ينقص منه ، وأن كل بدعة في الدين ضلالة .

فما هي حتى غدت البلدة كلها كأنها مدرسة داخلية ، مدرسها الشيخ ابن عبد الوهاب ، وتلاميذها كل من كان في البلد من رجال ونساء وأولاد وأقبل عليها الناس من كل مكان .

فكان المسجد ممتلئاً بحلقات العلم والذكر ، يتعلمون منه ويعملون بما تعلموه ، ثم يعلمونه غيرهم .

يجتمعون على الصلوات والأذكار المأثورة ، والصلاة على النبي ﷺ وتلاوة القرآن مع التدبر .

فكأنها انتقلت الدرعية من قرية في نجد في القرن الثاني عشر للهجرة إلى حي من أحياء المدينة ، في صدر الإسلام .

الشيخ هو الامير

وكان الشيخ هو الحاكم الفعلي ، وهو الآمر الناهي ، بيده الحل والعقد ، والأخذ والعطاء ، ما يجبى من الأموال ، قل أو كثر يدفع إليه ،

وينفق عن يده ، لايصدر أمر من محمد بن سعود إلا بعد مشورته ، الوفود عليه ، والضيوف في منزله ، والداخل إليه،والخارج من عنده.

يكاتب أهل البلدان

وكان الشيخ كمولد الكهرباء ، لايمسه أحد إلا سرى فيه من تيار روحه ، وكان كالمصباح القوي ، من قرب منه عاش في نوره ، وكان أبداً في تعليم وإرشاد ، وعمل نافع ، وجهد دائم .

فرغ من أمر الدرعية ، فبدأ صفحة جديدة في سجل الدعوة ، فكتب إلى أهل البلدان المجاورة ، وإلى أمراء العرب ورؤسائهم وقضاتهم ومدعي العلم فيهم ، يدعوهم إلى الرجوع إلى التوحيد الصحيح ، والإسلام الخالص ، الذي جاء به محمد بن عبد الله ، ﷺ ، ونبذ البدع والمحدثات .

فمنهم من قبل واتبع الحق ، وأقبل عليه وافداً مسترشداً .
فكان أول من وفد عليه عثمان بن معمر في أهل العيينة .
ثم وفد عليه أهل حريملة مبايعين .

الدعوة بالقوة

ولما رأى من أكثر من دعاهم الإعراض ، وأن منهم من لم يكتف

بالإعراض بل سخر بالدعوة ، ونسب إلى القائمين بها ما ليس فيهم ، وجاهر بالعداء ، أمر الشيخ أصحابه بالجهاد.

وبدأت سلسلة المعارك التي امتدت من سنة ١١٦٠ إلى أن مات الشيخ وبقيت مستمرة بعده .

معارك متصلة ، لا تنتهي معركة حتى تبدأ أخرى .

معارك مع القبائل والبلدان المجاورة كلها ، كان أطولها وأشدها معارك الرياض مع دهام بن دواس . إلى أن انتهت بفراره وإخلائه البلد سنة ١١٨٠ .

معارك بذل فيها السعوديون أموالهم ودماءهم ، وغنموا فيها الأموال الكثيرة وأراقوا فيها الدماء أنهاراً .

ولقد كان أول جيش غزا في سبيل الدعوة بأمر الشيخ ، سبع ركائب فقط . يقول ابن بشر : إن راكبيها لم يكونوا قد اعتادوا ركوبها ، فلما أسرعت بهم سقطوا من أكوارها . ثم كثرت الجيوش وتتابع النصر ، حتى غلبوا كل من كان في نجد ، وجعلوها كلها إمارة واحدة تظللها راية التوحيد .

ولقد أعددت هذه الرسالة عن محمد بن عبد الوهاب في أقل من

عشرة ايام قرأت فيها أخبار هذه المعارك كلها ، ثم وقفت عند كتابة هذا الفصل قرابة سنتين ، ولم أقف لأني تعبت في تلخيص الأخبار أو إجمال حديثها ، فليس ذلك من موضوع هذه الرسالة، ولكني وقفت لأني لم أستطع أن أستخلص حكم الإسلام في هذه الحروب .

هل كان للشيخ محمد بن عبد الوهاب والسموديين الحق في محاربة الناس ، واستحلال أموالهم ، وقتل رجالهم ، وتخريب بلادهم ، وهم ينطقون بالشهادتين ، ويقولون : نحن مسلمون

وإذا لم يحاربوهم ، فهل كان يجوز تركهم على جهلهم وضلال عامتهم وهم قادرون على إزالة تلك المنكرات التي كانت فيهم ؟

هذا ماترددت سنتين في الجواب عليه ، ولم أستطع الجواب إلى الآن!

فأنا حين أذكر أن أبا بكر والصحابة حاربوا المرتدين ، مع أن أكثرهم لم يجحدوا الإسلام ، بل منعوا الزكاة فقط ، أجد للشيخ عذراً في حرب هؤلاء الأعراب الذين فعلوا أضعاف مافعله أولئك الذين سميناهم أهل الردة .

وحين أذكر أن الشيخ كاد يكفر المسلمين جميعاً إلا جماعته ، مع أن هؤلاء المسلمين لم يعبدوا (جميعاً) القبور، ولم يأتوا (جميعاً) المكفرات ، وإنما فعل ذلك عوامهم ، وأن فيهم العلماء والمصلحين ، أقول ليس للشيخ عذر.

ثم انهم يتقيدوا في هذه المعارك بالقواعد التي وضعها الإسلام لحرب الكفار ، أيام الفتوح الأولى .

فالإسلام يأمر باعلان الحرب ، وان ننبذ اليهم على سواء، وهـــذه المعارك كان أكثرها مفاجأة للعدو . أذكر حادثاً واحداً ، من عشرات من الحوادث ذكرها ابن بشر ، وكتابه أمامي ، وأرقام الصفحات التي ذكرت فيها تحت يدي ، ولكن لا يتسع المجال لذكرها .

وهذه الحادثة هي أن أمير بلدة (حرمـــة) قدم على الشيخ بعد ما قبلت (حرمة) الدعوة ، وتبعت الشيـخ ، يخبره أن أمارات الردة ونقض العهد قد بدرت منهم ، فبعث إليهم جيشاً يقوده عبد الله بن محمد بن سعود فسار من طريق غير مسلوك ليعمي عنهم الأخبار حتى يبغتوهم في بلادهم (وهذا الكلام وما يليه كله من كلام ابن بشر)، فساروا بالليل والنهار ، حتى وصلوا بلاد (حرمة) ليلاً وهم هاجعون ، ففرق عبد الله رجالاً في بروج البلد وفي أطرافها ، فلما انفجر الصبح أمر عبـد الله كل صاحب بندق (بندقية)أن يثوّرها (أي يطلقها) ، فثوروا البنادق دفعة واحدة فارتجت البلد بأهلها ، وأسقط بعض الحوامل ، الخ ...

وأبو بكر ، لما وجـــه القواد لحرب المرتدين ، أمرهم ألا يعقروا نخلاً ولا يقطعوا شجرة[1] وهذه المعارك لم تخل واحدة منها من قطع الأشجار

---

(١) انظر كتابي (أبو بكر الصديق) فصل حرب الردة .

وحرق المزروعات وإفسادها،وتجد أمثلة على ذلك في الصفحات ٣٠-٥٢-٥٣-٥٦-٦١ وغيرها من كتاب تاريخ نجد لابن بشر .

وكانوا يستولون على أموال العدو كلها ، ولست أدري هل كانوا يسبون النساء ويستحلون فروجهن ، ولم أجد لذلك ذكراً . وابن بشر يصف الدرعية وكيف كانت في أضيق عيش،وكيف صار فيها من الأموال والسلاح المحلى بالذهب والفضة مالايوجد مثله ، ومن الخيل والجياد ، والنجائب العمانيات ، والملابس الفاخرة ، وغير ذلك من (الرفاهيات) مايعجز عن عن عدّه اللسان، ويكل عن حصره الجنان والبنان.

وهذا الذي نقلته هو كلامه بالحرف.

ويصف كيف كان على الشيخ أربعون ألف محمدية (دينار ذهبي) ديناً كان أنفقه على من هاجر إليه من الموحدين ، فقضاها كلها من غنائم الرياض يوم فتحها .

وكانت حوادث القتل بدعوى الردة كثيرة .

هذا عثمان بن معمر ، الذي كان أول من نصر دعوه الشيخ في العيينة وأول من قدم عليه مبايعاً في الدرعية ، كانت نهايته القتل .

أما ذنبه فهو انه كان أمير معركة ثرمدا ، ففاجأ مقاتلة العدو وهزمهم وقتل منهم سبعين رجلاً ، وكان معه عبدالعزيز بن محمد بن سعود فطلب

منه أن يأمر باحتلال البلد فأبى . فلما رجع شكاه عبد العزيز الى أبيه والى الشيخ ،فتغيرا عليه .

ثم نسبوا إليه أنه (نقض العهد) . فدفعوا نفراً من اصحابه الى قتله فقتل في العيينة ، في المسجد بعد صلاة الجمعة ، مع أنه كان اول من نصر دعوة الشيخ ، وان له صلة مصاهرة بابن سعود ، إذ كان ولده عبد العزيز متزوجاً بابنته ، وجاءه منها سعود .

كما أن إبراهيم بن محمد رئيس بلدة (ضرمى) قتل في مجلسه لأنه (كما قالوا) نقض عهد محمد بن سعود والشيخ .

ثم رفعت دعوى على القاتلين، بأنهم بعد قتلهم الأمير أعجبوا بأنفسهم واحتقروا الرعية واهل الدين وقيل للشيخ ولابن سعود :
— ان هؤلاء لايؤمنون وإن عوقبوا بالجلاء أضرّوا بالبلد
فقال الشيخ والإمام (ويقصدون بالإمام ابن سعود) :

— نحن جاهلون بحالهم فإن كنتم تحققتم منهم شيئاً فامضوا فيهم بعلمكم.
فقتلوهم جميعاً صبراً.

بل ربما وصل الأمر الي التدمير العام كما وقع لأهل بلد (حرمة) الذين تقدم الكلام عنهم . فإن سعود كتب الى أبيه عبد العزيز سنة ١١٩٣ (وكان هو الإمام) :

إن أهل هذه القرية تكرر منهم نقض العهد . وإنهم لاثقـــة بهم

فكتب إليه أن يدمر البلدة

فدمرها كلها وارتحل أهلها فتفرقوا في البلاد.

ولكني أنظر في مقابلة هذا فأجد أن هذه المعارك ، قد نقلت نجداً من حال إلى حال .

حولتها من الانقسام والاختلاف، الى الوحدة .

ومن الشرك والجهالة والعصيان، الى التوحيد والعلم والعبادة .

وأصلحتها في أخلاقها وفي معاملاتها ، وكانت عاقبتها خيراً للناس في الدين والدنيا .

فهي كانت بذلك حائرة .

إني لاأزال متردداً في الحكم ، ولاأدري بماذا أجيب .

شهادة حق

على ان من الإنصاف أن أشهد أن الذي وقر في نفسي ، وقد قرأت سيرة الشيخ في أوسع مصادرها ، قراءة (حيادي) لا يدفعه الحب إلى إغفال العيوب ، ولايسوقه البغض إلى ستر الحسنات ، أن الرجل كان أعلم وأتقى لله ، من ان يظنّ به الإقدام على القتل في هوى النفس ، او ابتغاء الدنيا ، والأشبه به الا يصدر إلا عن حجة شرعية . وليس في أيدينا تاريخ مفصل لهذه الوقائع وأسبابها ،وأوسع ما رأيناه من المصادر

كتاب ابن بشر، وهو يعرضها عرضاً موجزاً جداً، لايزيد على بيان مكان المعركة وقوادها وعدد قتلاها . ولعل ماخفي من الأسباب، يبرّر ماظهر من شدة العقاب .

وقد سجلت هذا لئلا أظلم الناس، وحسابهم على الله، والله أعلم بحقيقة ما كان .

ومن الإنصاف أيضاً أن أقرر ان الشيخ لم يكن طالب دنيا، وأنها قد دخلت يده هذه الغنائم الهائلة، وهذه الأموال التي لايحصيها العدّ، وكان أمرها إليه، لاينازعه فيها أحد، فطبق عليها أحكام الشرع في قسمة الغنائم، وسواء أكانت غنائم شرعية ام لم تكن، فإنه ما اختص نفسه منها بدينار ولادرهم، ولاابتغى الغنى من طريق غيرها .

وكان المال أهون شيء عنده، وإعطاؤه أسهل شيء عليه، وكان عطاؤه عطاء من وثق بالله، فلا يخشى الفقر، وكان عنده أبداً العشرات من الضيوف والوافدين، فكان ينفق عليهم كل ماتصل إليه يده من الحلال.

وقد اتفق الذين وصفوه على أنه كان كثير الذكر، دائباً على العبادة منصرفاً من صغره عن اللهو وعن الدنايا، وأن لسانه لايفتر من ذكر الله، ولا يخلو من (سبحان الله والحمد لله ولاإله إلا الله والله اكبر)وكان كثير الصلاة على النبي ﷺ .

وكان الذين ينتظرون قدومه ، يعرفون إقباله عليهم قبل أن يروه من سماع تسبيحه وتهليله .

وكان يتولى أمور الحكم خوفاً على الدعوة ، لا طمعاً بالسلطان ، فلما فتحت الرياض وزال ابن دواس العدو الأكبر ، واستقرت دعوة الحق في الأرض ، ترك الأمر لعبد العزيز ، وكان هو الإمام ، وفوض أمور المسلمين وشؤون المال إليه .

محمد بن سعود

وفي سنة ١١٧٩ توفي محمد بن سعود ، بعدما نصر الدعوة وأيدها ووطدها ، وأخضع لها أكثر أهل نجد ، فولي الأمر بعده ولده عبد العزيز ، فكان لا يقطع أمراً دون الشيخ ، ولا ينفذه إلا بإذنه ، مع أن الشيخ كان قد انسلخ من أمور الحكم ، ومن بيت المال ، ولزم العبادة ، وتعليم العلم .

* * *

أقام في الدرعية قريباً من نصف قرن ، حقق الله فيها على يديه مالو تخيله (قبل وقوعه) شاعر أو أديب ، لظنوا أنه تخيل المستحيل ، وقالوا، إنه من المجانين .

لقد بدل الله به الأرض غير الأرض ، والناس غير الناس .

أخرجهم به من ظلمة الجهل الى نور العلم ، ومن الانقسام الى الوحدة ومن الضلال الى الهدى .

ولقد أخذت على ابن بشر وغيره من المؤرخين في أول هذه الرسالة انهم يشبهون هذه الدعوة بالإسلام ، ويستعملون ألفاظ السيرة ، وأنا راجع مع ذلك إلى ما كنت أخذته عليهم ، فمشبه هذه النهضة بنهضة العرب في صدر الإسلام ، لأني لم أجد لها مثيلا إلا نهضة العرب بالإسلام .

ولا عجب في ذلك مادام العلماء هم ورثه الأنبياء ، ومادام الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها .

ومادام الرجل لم يأت بجديد ، ولم يدع الى بدعة ، انما جاء الناس بهدي محمد ، بكتاب الله وسنة رسوله ، ودعاهم اليها ، فإن هذه الاستجابة معجزة من معجزات الرسول ﷺ ، وآية جديدة على أن هذا الاسلام لايموت ، لأنه هو دين الله ، ولأن الله تعهد بحفظه وإنه إن حاقت به أوضار البدعة فأخفت جوهره ، لم يلبث أن ينتفض انتفاضة فيلقي عنه ماعلق به ، ويعود جوهراً نقياً خالصاً من الشوائب والأوضار .

وأنه إن انصرفت عنه قلوب أهله ، وأهملوا اتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، وحسب أعداء الله أنه انطفأ نوره ، وحانت منيته ، بعث الله له ، من يهز هذه القلوب ، يحرك فيها جذوة الإيمان ، فتعود إليه ، وتتمسك

به ، وإن هي لم تعد ، وبقي المنتسبون للاسلام على ضلالهم ، وسوء حالهم ، استبدل الله بهم قوماً غيرهم : أمة من هذه الأمم اليقظة الجادة تدخل في الإسلام ، وتخلص له ، وتكون هي أمة محمد ، ونرجع نحن (لاسمح الله ولاقدر) لادنيا ولادين .

مؤلفاته

لقد عرضت للشيخ محمد بن عبد الوهاب المشكلة التي تعرض لكل من يدعو منا الشباب اليوم إلى الإسلام .

إنه يجد أن التقرير والإلقاء لا يكفيان ، ولا بد من كتاب يرجع الشباب إليه ، والكتب الموجودة لا تصلح لهم، والكتب التي تصلح لهم لم توجد.

فماذا يصنع الداعي منا اليوم .

إننا لم نستطع إلى الآن أن نجد الحل الكامل لهذه العقدة . أما ابن عبد الوهاب فقد وجدها .

إنه ألف هو الكتب التي تحتاج إليها الدعوة .

وليست هذه الكتب ، حواشي طويلة مملة الأسلوب، معقدة العبارة، محشوراً فيها غرائب المسائل حشراً ، بل هي رسائل صغيرة

تعليمية ، واضحة ، جمع فيها أسس الاسلام ، وأركان الشريعة ،وسيرة الرسول ﷺ وهي معروفة ، لاتحتاج إلى تعريف بها .

أجلها وأنفعها (كتاب التوحيد)، وعني به علماء نجد ، شرحاً وتعليقاً ، وشروحه كثيرة :

كتاب (أصول الإيمان)

وكتاب (تفسير شهادة أن لا إله إلا الله)

وكتاب (معرفة العبد ربه وكتابه ونبيه)

وكتاب (كشف الشبهات)

وكتاب (مسائل الجاهلية) الذي شرحه ووسعه الألوسي

وكتاب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

وكتاب (مفيد المستفيد)

وكتاب (إختصار الشرح الكبير والإنصاف).

وكتاب (آداب المشي إلى الصلاة) اقتبسه من شرح الإقناع

ورسالة في التقليد وأنه غيرواجب.

ورسالة الكبائر ، ومختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية

ورسالة (النبذة لمعرفة الدين)

ومختصر سيرة ابن هشام

وليس في هذه الرسائل إلا ماهو معدود من أركان الاسلام. وإنلم تخل من تشدد وغلو .

كقوله ، لما عدد نواقض الاسلام:

والثاني منها (أي من هذه النواقض) من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ، ويستغيث بهم ، ويستمد مددهم ، ويتوكل عليهم .

والمأخذ عليه في هذا أنهلم يبين ماريده بالشفاعة مثلاً ، وفيهاماهو ثابت في السنة .

وأنه سوى في ذلك بين الهازل والجاد والمختار والمكره ، مع أن الله يقول (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)

وجاء بما هو أبين من هذا وأصرح في كتاب (كشف الشبهات) وفي رسالة القواعد الأربعة مثل هذا .

على أن الحق أن كتب الحنفية تتوسع في باب التكفير ، وتحكم به لما هو أقل من هذا . والكمال لله وحده ، والعصمة لرسله فقط.

وفاته

توفي سنة ١٢٠٦ عن إحدى وتسعين سنة، أمضاها كلها في الدعوة

للاسلام ، والعمل على تجديده . كان ذلك هو لذته إن ابتغى الناس اللذائذ وكان هو همه إن تعددت في الناس الهموم ، ما كان له شاغل من شهوة بطنه ، ولا من الشهوة الأخرى ، ولا كان أربه جمع المال ، ولا كان حرصه على السلطان لمتعة السلطان .

عاش لهذه الدعوة ، ومات مقيماً عليها .

وإذا كان عمل ابن آدم ينقطع كله بموته إلا ثلاثاً ، صدقة جارية ، أو علم نافع ، أو ولد صالح يدعو له .

فلقد ترك أولاداً وذرية مانعرف أسرة في هذه القرون الأربعة ظهر فيها من العلماء ماظهر منهم ، وكان فيها من أرباب الصلاح بعدد ما كان فيهم ، ولا تزال هذه الدوحة مخضرة إلى اليوم حافلة غصونها بيانع الثمرات.

ولقد ترك علماً نافعاً . ولقد كتب في تاريخ النهضات الاصلاحية صفحة من أمجد الصفحات.

رحمه الله ، وغفر لنا وله ، وعصمنا من العصبية له ، ومن العصبية عليه ، وردنا إلى الائتلاف بعد الاختلاف ، وجمعنا كلنا تحت راية القرآن.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والحمد لله رب العالمين.